تقديم

شاءت الظروف أن أسافر إلى كل من ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية سنويا تقريبًا منذ عام ١٩٨٥، ففى ذلك العام اشتركت فى مؤتمر مؤرخى العالم فى مدينة شتوتجارت فى ألمانيا الاتحادية، وفى العام التالى (١٩٨٦) سافرت إلى مدينة ليبزج بألمانيا الديمقراطية، وعملت أستاذًا زائرًا بجامعتها، ومع نهاية عام ١٩٨٦ عملت أستاذًا زائرًا بجامعة كيل فى ألمانيا الاتحادية، ثم سافرت فى عامى ١٩٨٨، ١٩٨٩ للعمل كأستاذ زائر بجامعة ليبزج، وقدر لى فى تلك الأسفار أن ألتقى بالعديد من المفكرين، وأن أتبادل معهم الرأى بالنسبة لتطور الأمور، كما أن زياراتى وتنقلاتى بين فرانكفورت وهامبورج وكيل وغيرها فى ألمانيا الاتحادية، وكذلك تحركاتى المتعددة بين برلين الشرقية وليبزج وفيمار وأرفورت ودرسدن ولوتزن فى ألمانيا الديمقراطية ومعايشتى للمجتمع الألمانى بصفة عامة، كل ذلك جعلنى أستجيب فورًا للدعوة التى وجهت إلىّ من دار المعارف بأن أعد كتيبا عن ألمانيا.. ولم يكن الأمر سهلاً، فلألمانيا تاريخ طويل ممتد طيلة التاريخ القديم والوسيط والحديث والمعاصر.

وقد تناولت فى الفصل التمهيدى من هذا الكتيب أصل الألمان، وقيام

الدول الألمانية المتعاقبة، كما أننى فى الفصل الأول عالجت موضوع ألمانيا والإصلاح الدينى البروتستنتى، وخصصت الفصل الثانى لإعطاء صورة لحرب الثلاثين عامًا فى ألمانيا والتى دمرت ألمانيا تدميرًا امتدت آثاره نحو قرنين من الزمان، أما الفصل الثالث من هذا الكتيب فهو عن قيام الاتحاد الألمانى وقيام الإمبراطورية الألمانية ١٨٧١، وعالج الفصل الرابع موضوع ألمانيا والحرب العالمية الأولى. وقدم الفصل الخامس صورة لفلسفة النازية ودور ألمانيا فى قيام الحرب العالمية الثانية، أما الفصل السادس والأخير فقد عنونته «ألمانيا.. إلى أين المصير» باعتبار أن المتغيرات الدولية المعاصرة صارت تسير بطريقة مذهلة من ناحية سرعة تلك المتغيرات، بحيث صار المؤرخون يلهثون وراء الأحداث، ولا يستطيعون ملاحقتها وتحليلها، فكل يوم يمر يحدث فيه الجديد والذى كان حلما ثم أصبح حقيقة واقعة. ففى مدة وجيزة من عمر الزمن عبر الألمان الشرقيون سور برلين، والذى وقف صامدا ثمانية وعشرين عامًا يحول دون تلاقى الألمان الشرقيين بأقربائهم فى ألمانيا الاتحادية، ومع رياح التغيير التى جاءت بها البيريسترويكا من موسكو، ومع الوفاق بين القوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ومع محاولة إقامة أوربا كدولة موحدة سنة ١٩٩٢، ومع استفحال اليابان كغول اقتصادى يهدد اقتصاديات العالم الغربى والشرقى معًا، مع كل هذه الأمور الهامة، والتى قد تحدد مصير تطور البشرية فى القرن القادم، مع كل ذلك، يحول الألمان فى ألمانيا الاتحادية، والأغلبية فى ألمانيا الديمقراطية مسألة عبور سور برلين ومسألة الإصلاحات وتحقيق الديمقراطية إلى مسألة جديدة قديمة.. الوحدة الألمانية أو الاتحاد الألمانى، وقد تتحقق الوحدة الألمانية من جديد طبقا لتلك المتغيرات السياسية السريعة، وعلى العالم ككل

حينئذ أن يعيد ترتيب سياساته واقتصادياته لمواجهة ألمانيا الموحدة.. ذلك العملاق العسكرى والاقتصادى الجديد.

جاد طه
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وعميد كلية الآداب - جامعة عين شمس
ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط

تمهيد تاريخى

تعود الأصول الأولى للشعب الألمانى إلى القبائل الجرمانية التى يرجع تاريخها إلى ماقبل الميلاد بعدة قرون، وكانت هذه القبائل - وحتى حوالى عام ٥٠٠ ق.م - تقطن المنطقة الواقعة بين نهرى الأودر والإمز شمال ألمانيا الحالية، وتحيط بها من الشمال قبائل دنمركية ومن الشرق قبائل سلافية، ومن الجنوب قبائل الإليرر وقبائل الكلتيين.

وكانت تلك المنطقة الجرمانية - فى شمال ألمانيا الحالية - كثيرة الغابات قاسية البرودة والرطوبة، وكان من الطبيعى مع ازدياد السكان أن تضيق المنطقة بسكانها مما دفعهم مع حوالى عام ٥٠٠ ق.م إلى التوسع شرقا حتى وصلوا إلى نهر الفستولا، وغربًا حتى احتلوا وسط وجنوب ألمانيا الحالية، وفى عام ٥٠ ق.م وصل الجرمان إلى يسار نهر الراين الأعلى ثم إلى منطقة الراين الأوسط، ونهر الدانوب، وعرفت تلك المجموعة باسم الجرمان الغربيين، أما القبائل الجرمانية التى استوطنت آنذاك منطقة اسكندناوة فقد أطلق عليها اسم الجرمان الشماليين وأطلق على المجموعة الثالثة من القبائل الجرمانية التى استوطنت المنطقة الشرقية من ساحل البلطيق اسم الجرمان الشرقيين.

وكان الجرمانى جنديًا بطبعه، فهو لايرضى الخضوع للعدو، ولايرتضى لنفسه فى ميدان القتال الاستسلام أو الوقوع فى الأسر، ويفضل عليه الموت، فكان فى ميدان القتال يحارب حتى النصر أو الموت.

وقد عرفت الدولة الرومانية قدر المحارب الجرمانى، واستفادت من شجاعته، فجندت فى سلك العسكرية الرومانية الآلاف من الجرمان، الذين صارت لهم السيطرة على الجيش الرومانى والبلاط القيصرى.

وفى عام ٤٨١م أصبح كلوفس ملكاً للفرنجة، وشاء القدر أن يلعب كلوفس دورًا خطيرًا فى تاريخ القبائل الجرمانية الغربية، فقد خطط لإنشاء دولة قوية، وبالفعل ضم كلوفس غاليا ونقل عاصمته إلى باريس، كماأنه تحول من الوثنية إلى الكاثوليكية، وبذلك عرف الألمان المسيحية واعتنقوها على المذهب الكاثوليكى، وهكذا كان لكلوفس الفضل فى تأسيس أول دولة ألمانية جعل باريس عاصمة لها وهى دولة الميروفنجيين.

وعين كلوفس لكل قبيلة من القبائل الخاضعة له دوقا، يدين له بالولاء، وأنعم كلوفس بمساحات واسعة من الأراضى على أعوانه. وبدأ النظام الإقطاعى يتخذ شكلاً واضحًا، إذ أن الكثير من الفلاحين فضلوا الانضواء تحت حماية السيد الإقطاعى ليضمنوا حمايته لهم، فتخلوا بذلك عن ملكيتهم الخاصة، ولم يلبث الإقطاعى أن أضحى يورث أبناءه من بعده اقطاعيته وما عليها؟

وبعد موت كلوفس فى عام ٥١١م، قسمت مملكته بين أبنائه الأربعة، وسار أبناء كلوفس على سياسة والدهم التوسعية، فامتدت دولتهم فى منتصف القرن السادس الميلادى من المحيط الأطلسى غربا حتى غابات يوهيميا شرقا، ومن البحر المتوسط جنوبا حتى بحر الشمال شمالاً.

إلا أنه سرعان مابدأ يدب الضعف فى أسرة الميروفنجيين الحاكمة فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى، انقسمت الدولة الميروفنجية إلى ثلاثة أقسام: استراسيا فى الشرق، ونويستريا فى الغرب، وبرجونديا على جانبى نهر الرور، وأصبحت الدولة بصفة عامة تحت سلطة رجال البلاط الذين أصبحت كلمتهم هى الأولى فى الدولة. وبرز من بين رجال البلاط فى أستراسيا بيت الكارولنجيين، الذى جعل وظائف البلاط وراثية فى أبنائه فقط.

وبرز من أسرة الكارولنجيين رئيس للبلاط، فى أستراسيا عام ٢٢ ق م اسمه بيبين، وخلفه فى رياسة البلاط بأستراسيا ابنه بيبين الثانى عام ٦٨١م، وتمكن بيبين الثانى من أن يصبح عام ٦٨٧ رئيسًا للبلاط فى نويستريا أيضا. وبذا. توحدت المملكتان ثانية تحت سلطته. إلى أن خلفه ابنه شارل مارتل الذى تولى حكم أستراسيا ونويستريا.

وفى عام ٧٥١ خلف بيبين القصير أباه شارل مارتل فى رئاسة البلاط، وبالتالى تولى السلطة الأولى فى الدولة، برغم وجود الملوك الميروفنجيين، الذين أصبحوا مجردين من كل سلطة تمامًا، واستطاع بيبين القصير هذا فى نفس عام توليه رئاسة «البلاط أى عام ٧٥١ خلع آخر ملوك الميروفنجيين والمناداة بنفسه ملكًا.

والواقع أن بيبين كان قبل إعلانه لنفسه ملكًا على الفرنجة قد استشار البابا زكريا، وجاءت مشورة البابا مؤيدة له فى أفكاره.. فأقدم عليها.

ومات بيبين مؤسس الدولة الكارولنجية عام ٧٦٨، بعد أن قضى على دولة الميروفنجيين التى أسسها كلوفس عام ٤٨١، والتى أسست مملكة الفرنجة وحكمتها ثلاثة قرون، بل التى أنشأت أول دولة ألمانية تضم

فرنسا وأجزاء من مناطق مختلفة.

وترك بيبين بعد وفاته ولدين مات الأصغر وهو كارومان سنة ٧٧١، فخلا الجو لأخيه شارلمان الذى حكم دولة الفرنجة ثلاثة وأربعين عامًا، وهو يعد بحق أعظم ملوك الفرنجة.

وقد هاجم شارلمان السكسون الذين عاشوا فى المانيا الحالية ولم ينتقلوا إلى الشواطىء البريطانية، وكان السكسون حينذاك متعصبين للوثنية، ويقطنون منطقة واسعة تمتد من الراين إلى نهر الإلبا. وفى عام ٧٧٢ هاجمت جيوش شارلمان بلاد السكسون وحطمت لهم أوثانهم، وأجبروهم على اعتناق المسيحية، ولكن السكسون بقيادة زعيمهم فيدوكند قاوموا مقاومة عنيفة مما اضطر جيوش شارلمان إلى الانسحاب.

ولكن شارلمان ذهب بنفسه على رأس جيش كبير، ـوصل إلى الإلبا، واضطر فيدوكند إلى الهرب، ونظم شارلمان البلاد المفتوحة، وأمر بقتل كل من يحاول من السكسون تدمير الكنائس أو العودة إلى الوثنية. وبرغم ذلك فإن مقاومة السكسون لم تنته، مما اضطر شارلمان إلى إجلاء أسر سكسونية كثيرة بكامل أطفالها ونسائها لتقيم فى بلاد الفرنجة، وأحل محلها عائلات من الفرنجة، ولم تنته مقاومة السكسون للفرنجة إلا عام ٨٠٤.

وبرغم اعتزاز شارلمان بجرمانيته فإنه احتضن اللغة اللاتينية والحضارة الرومانية، وهكذا كتب لدولته التى شملت كل فرنسا الحالية وألمانيا وأجزاء من أسبانيا، وإيطاليا، وهولندا، وبلجيكا والنمسا، وبوهيميا وموراڤيا كتب لتلك الإمبراطورية الكبيرة مجد لم تعرف مثله حتى ولا أيام عظمة الإمبراطورية الرومانية.

مات شارلمان فى عام ٨١٤ ودفن فى آخن بألمانيا الحالية وخلفه ابنه لويس الذى كان أضعف من أن يحكم الإمبراطورية الشاسعة، وبعد وفاته سنة ٨٤٠ قسم أبناؤه هذه الإمبراطورية فيما بينهم، وازدادت الدولة ضعفا على ضعف، وانقسمت إلى مئات الدوقيات المنفصلة.

وفى سنة ٩١٩ مات كونراد آخر ملوك الكارولنجيين، وانتخب نبلاء السكسون هنرى دوق سكسونيا ملكًا على ألمانيا.

وبانتخاب هنرى الأول من النبلاء ورجال الدين السكسون والفرنكيين (أو الفرنجة) أضحى ملكًا على هاتين المقاطعتين فقط، لأن باقى دوقيات ألمانيا لم تشارك فى عملية انتخابه، وعمد هنرى إلى إخضاع بقية الدوقيات الألمانية لسلطانه،ولكن دوقيات جنوب ألمانيا رفضت الخضوع له أو الاعتراف به ملكًا.

وتقدم هنرى بجيوشه لإخضاعهم ولكنهم آثروا الصلح معه، فاعترف به دوق سوابيا، وتبعه دوق بافاريا، ثم دوق اللورين وبذلك توحدت ألمانيا مرة أخرى تحت حكم الملك هنرى، وأضحت تمتد من الراين غربًا إلى جبال الهرتز شرقا، لتضم كل الشعوب المتكلمة بالألمانية، عدا الفلمنك الذين ظلوا تابعين لدولة الفرنجة الغربية.

ومات هنرى وخلفه أبنه العظيم أوتو، الذى انتخبه كبار رجال الدولة عام ٩٣٦، واتخذ أوتو من شارلمان مثالاً له، وسلب سلطات الأدواق الألمان، ليعطيها لموظفين خاضعين لسلطته، واستعان برجال الدين لتأكيد سيطرته على ممتلكاته، وبعد أن وطد أوتو الأول دعائم حكمه فى ألمانيا، عبر بجيوشه جبال الألب، وضم مملكة لومبارديا فى شمال ووسط إيطاليا وأسس بذلك الإمبراطورية الألمانية المعروفة باسم الإمبراطورية

الرومانية ذات القومية الألمانية والتى استمرت حتى عام ١٨٠٦، وفى عام ٩٦٢ ألبسه البابا يوحنا الثانى عشر تاج الإمبراطورية.

وبعد وفاة أوتو الأول عام ٩٧٣ خلفه ابنه أوتو الثانى الذى حكم عشر سنوات تعرضت فيها الدولة لهجمات السلافيين، وتوته فى عام ٩٨٣ خلفه ابنه أوتو الثالث وهو طفل فى الثالثة من عمره، وتحت وصاية أمه وجدته، وتوفى أوتو الثالث عام ١٠٠٢ بعد نقل عاصمة الدولة إلى روما، وتمكن هنرى الثانى آخر ملوك الدولة السكسونية من استعادة ما فقدته، الدولة شرقى الألبا، ومن تقوية حدوده الشرقية مع الهولنديين وبوفاته سنة ١٠٢٤، انتهى حكم الأسرة السكسونية التى بدأها هنرى الأول سنة ٩١٩، وانتخب كبار رجال الدين والدوقات كونراد الثانى دوق فرانكونيا ملكًا على ألمانيا عام ١٠٢٤.. وكان كونراد من الفرانكيين الساليين، لذلك تسمى تلك الأسرة الملكية أيضا باسم الأسرة السالية وظلت هذه الأسرة فى الحكم نحو مائة عام (١٠٢٤ - ١١٢٥) وتوالى على الحكم فيها هنرى الثالث وهنرى الرابع وهنرى الخامس، ويعتبر عصر هذه الأسرة عصر الخلافات مع الكنيسة.

وبوفاة هنرى الخامس ١١٢٥ دون أن ينجب ولدا، اختار الناخبون الملك لوثير سبلنبرج وهو سكسونى، وأثار انتخاب لوثير تأثرة أسر. الهوهنشتاوفن التى كانت تعتقد بأحقيتها فى الملك وصار النزاع مستمرا بين أسرتى الجولفيين والهوهنشتاوفين، وإلى أن تولى فردريك العرش عام ١١٥٢، وكان من أسرة الهوهنشتاوفن وإن كانت أمه من أسرة الجولفيين، وهكذا عاد السلام بين الأسرتين. وفردريك الأول (بربروسا) هو الذى قاد جيشه إلى الشرق فيما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة

(١١٨٩-١١٩٢) ولكنه لم يصل إلى بيت المقدس فقد مات فى آسيا الصغرى غرقا عام ١١٩٠.

وبموت فردريك الأول تعاقب على العرش هنرى الثانى، ثم فرديك الثانى، ثم كونراد الرابع، ثم كونرادين الذى قتل سنة ١٢٦٨، وبمقتل هذا الأخير انتهت أسرة الهوهنشتاوفن التى أسسها فردريك بربروسا عام ١١٥٢.

وبعد انهيار هذه الأسرة الحاكمة الأخيرة، عاشت الدويلات الألمانية فترة من الاضطراب، إلى أن تحدد عدد الأفراد الذين لهم حق انتخاب الملك بسبعة، ثلاثة من رجال الدين، وأربعة من الأمراء، واجتمع السبعة فقط لانتخاب الملك، وسموا منذ ذلك الحين بالأمراء الناخبين، وتم اتفاقهم على انتخاب رودلف من الهابسبورج قيصرًا لألمانيا.

وقد عمل رودلف منذ انتخابه سنة ١٢٧٣ على جمع السلطة فى يده، واشتهر بعدالته بين الناس فأحبوه، كما أنه أعاد الأمن إلى ربوع البلاد، ونعمت البلاد الألمانية بفترة فى هدوء والاستقرار حتى وفاته عام ١٢٩١.

وبوفاة رودلف بدأت المتاعب مرة أخرى، وأصر الناخبون السبعة على اختيار ملوك ضعاف حتى لاتقيد سلطتهم، وهكذا قسمت ألمانيا بين الأمراء السبعة، وعدد ضخم من الأمراء والأساقفة، ولقد مثلت فى الرايشستاج (مايشبه البرلمان الألمانى) حينذاك ٣٢٤ دويلة ألمانية ولم يعد للملك أى سلطة عليها. ورغم أن الملوك منذ عام ١٤٣٧ وحتى ١٨٠٦ كانوا جميعا من أسرة الهابسبورج، إلا أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا.